بسم الله الرحمن الرحيم

بين انقلابين ... [حسين بن محمود]
12 شوال 1437هـ

بين انقلابين

في ليلة الجمعة (العاشر من شوال سنة 1437هـ) تفاجأ الناس بانقلاب عسكري في تركيا ، واستبشر أعداء الأمة خيراً بسقوط حكومة حزب العدالة والتنمية الأردوغاني الذي ما فتئ يحارب العلمانية في تركيا بصمت وبخطوات صغيرة هادئة منذ عقد ونصف حتى استطاع إرجاع الكثير من المظاهر الإسلامية في الدولة الأتاتوركية العلمانية ، وفوق هذا استطاع هذا الحزب النهوض بتركيا اقتصادياً فانقلبت من دولة مَدِينة إلى دائنة ، وازدهرت فيها التجارة والصناعة والزراعة فاستطاعت استقطاب رؤوس الأموال العربية والآسيوية والغربية بسبب السياسات الإصلاحية ، فكان هذا الحزب نقمة على الغرب الذين خسروا الكثير من الإستثمارات الخارجية ، ونقمة على حكام العرب الذين يحاربون الدين ..

لعل من موّل الإنقلاب في تركيا هو ذاته الذي موّلها في مصر قبل سنوات على الرئيس المنتخب "محمد مرسي" ، ولكن بين الانقلابين فرق شاسع من حيث الإعداد والعناصر المشاركة والقبول الجماهيري في هذين البلدين ، ولعلنا نذكر بعض هذه الفروق حتى نعرف سبب اخفاق الانقلاب التركي ، ونجاح الانقلاب المصري ..

أما الانقلاب المصري فإنه حصل بعد ثورة شعبية عارمة لم نر أو نسمع بمثلها في التاريخ : حيث خرج قرابة الأربعون مليون إنساناً في شوارع مصر يطالبون بإسقاط رئيس طاغية ظلمهم لعقود طويلة ، فأسقطوه ، وتظاهر الجيش بالوقوف مع الشعب في تلك اللحظات فأمسك بزمام الأمور في البلاد ، ثم حصلت انتخابات برلمانية ورئاسية اكتسحتها جماعة "الإخوان المسلمين" التي كانت أكثر الجماعات تنظيماً في مصر ، فكانت نتيجة طبيعية جداً وفق المعطيات ..

جماعة الإخوان – التي عمرها ثمانون سنة عند استلامها الحكم – بقيت في حكم مصر سنة واحدة فقط ، ثم انقلب عليها الجيش ، وعُزل الرئيس ، وسُجن ، واعتُقلت قيادات الإخوان ، وصودرت أموالهم ، وقُتل أفرادهم في رابعة والنهضة وفي السجون ، ولوحق البقية في أرجاء البلاد ، وخرج الكثير منهم خوفاً على حياتهم ..

بدأ التدبير للانقلاب في مصر منذ اللحظة الأولى التي استلم فيها الإخوان زمام الأمور ، وكانت هناك عوامل كثيرة ساعدت الانقلابيين على إتمام الأمر على أكمل وجه ، منها : فساد المؤسسة العسكرية ، وفساد الشرطة والأجهزة الأمنية ، وفساد القضاء ، وفساد الإعلام ، وفساد كبار

التجار ، وتفرّق الشعب ، وغباء الأحزاب السياسية وعدم إدراكها لخطورة الانقلابات العسكرية وعدم تقديمها للمصلحة العليا على المصالح الحزبية الضيقة ، كل هذه الأمور وغيرها ، أدت للتسريع في اسقاط الرئيس المنتخب بعد أن قام الانقلابيون بمسرحية التظاهر الجماهيري الذي شاركت فيه بعض القوى السياسية ، والبلطجية ، والمدفوع لهم من عوام الناس ، والشرطة والجيش الذين لبسوا الملابس المدنية ، كل هؤلاء كوّنوا كتلة بشريّة صغيرة ليوم واحد فقط لا تُقارن بما كان في ميدان التحرير كل يوم من أيام الثورة ..

أما تركيا فإن حزب العدالة والتنمية استطاع خلال أكثر من عقد أن يتغلغل في أجهزة الشرطة والجيش والقوات الخاصة وسائر الأجهزة الأمنية والدفاعية في تركيا ، وتغلغل في السلك القضائي والإداري في البلاد ، واستطاع أن يبني لنفسه قاعدة شعبية عريضة بسبب قيادة أردوغان الذكيّة وكارزميته ، واستطاع الحزب تغيير ثقافة الأتراك الذين آمنوا بالحكم المدني وكفروا بالحكم العسكري ، واستطاع الحزب كسب ثقة الناس عن طريق الإصلاحات الاقتصادية ، واستطاع تغيير ثقافة الإعلام ليصبح حراً أقرب إلى النزاهة منه إلى الفساد ، واستطاع أن ينهض بالبلاد ، واستطاع الحزب دغدغة مشاعر الأتراك المسلمين عن طريق ارجاع بعض المظاهر الإسلامية في البلاد : كالحجاب والأذان ودروس القرآن ونشر تعاليم الإسلام في طول البلاد وعرضها ..

لم يكن عند الإخوان الوقت الكافي لتغيير الثقافة الشعبية في مصر كما هو الحال عند حزب العدالة التركي ، ولم يكن عند الإخوان وقت لتغيير الثقافة العسكرية في مصر ، ولا محاربة الفساد في المؤسسة القضائية ، ولا القضاء على الفساد الاقتصادي ، ولا نشر التعاليم الإسلامية الصحيحة (بل على العكس: أعلن مرسي مدنية الدولة رغم المطالب الشعبية بتحكيم شرع الله !!) ، ولم يكن عندهم وقت لتنقية الأزهر من عملاء "مبارك" ، والشعب المصري اعتاد الحكم "الفرعوني" المُستعبِد للشعوب ولم يتأقلم بعد مع الحكم "المدني الديمقراطي" الذي دعا إليه الرئيس "مرسي" ، ولم يستطع "محمد مرسي" القضاء على الفساد الإعلامي الذي كان من أكبر عوامل تجييش الناس عليه ، ولقد اتهمه البعض بالتراخي والضعف ، والحقيقة أن "مرسي" كان يظن أنه يرسّخ مبادئ الحرية في البلاد وفق نظرية الديمقراطية الغربية بترك الحبل للإعلام على غاربه ، والقوم عاجلوه بالانقلاب قبل أن يستشري داء الحرية في البلاد وفي قلوب العباد ..

العلمانية في مصر أضعف وأقل شراسة من أختها في تركيا ، والإسلام في مصر أكثر حضوراً منه في تركيا ، ولعل الوعي النُّخبوي في مصر أعظم من تركيا ، وجماعة الإخوان في مصر أقدم من حزب العدالة وأرسخ من حيث المبادئ والتراث التنظيمي والعلمي ، وأعداد الموالين للإخوان في مصر والعالم أكبر من الموالين لحزب العدالة في تركيا ، والموالون لحزب الإخوان المصري أعظم تضحية بأنفسهم لقيمهم ومبادئهم من الموالون لحزب العدالة التركي ، ولكن هذه المعطيات لم تكن كافية لترسيخ الوعي الشعبي والإصلاح الإداري في مصر خلال سنة واحدة ..

مصر اليوم هي تركيا قبل خمسين سنة تقريباً من حيث محاربة الجيش للإسلام ومظاهره وتسلّطه على الشعب وقمعه وتدميره للحياة المدنية والاقتصادية ، ومن حيث تسلّط الإعلام على عقول

العوام ، ومن حيث محاولة زرع مفاهيم الكفر العلماني والتفسّخ الأخلاقي ، وبينما ترجع تركيا إلى الإسلام بخطوات متواضعة بطيئة يخطوها القائمون على حزب العدالة والتنمية ، تبتعد المؤسسة الرسمية في مصر عن الإسلام وتحاول تغيير مفاهيمه عن طريق الإعلام والمؤسسة الدينية الرسمية المتمثلة في قيادات "حسني مبارك" في الأزهر ودار الإفتاء والأوقاف ، وكذلك بعض الجماعات المنتسبة للإسلام التي أسستها المخابرات المصرية ..

مصر اليوم هي تركيا التي حكمها يهود الدونمة باسم العلمانية ، فالسيسي بن "مليكة تيتاني اليهودية" يحكم مصر اليوم باسم العلمانية .. يهود الأتراك كانوا يتلقون الدعم الغربي واليهودي الخارجي ليدمروا تركيا سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً ، وابن اليهودية "السيسي" يتلقى الدعم من دول مختلفة للقضاء على مصر اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً ، وكما تكمن أهمية تركيا – عند الغرب – في كونها عاصمة الخلافة الإسلامية التي يجب تدميرها بالكلية حتى لا تنهض يوماً فتفكّر في إرجاع الخلافة ، كذلك مصر ذات أهمية كبيرة عند الغرب لكونها مركز ثقل العلم والدين في قلب العالم الإسلامي ، ولها حدود مع فلسطين المحتلة ، فكان لا بد من تدميرها كلياً حتى لا تشكل خطراً على المدى القريب أو البعيد ..

لم يكن طريق أردوغان والأحزاب الإسلامية التركية مفروشاً بالورود ، بل قامت محاولات كثيرة للقضاء عليهم سياسياً وفكرياً وعسكرياً ، ونجح أعداء أردوغان في سجنه ، ولكنه عاد إلى الواجهة بعزيمة أكبر وهمّة ونشاط استطاع من خلاله شق طريقه بعد تقلبات كبيرة وتفاصيل كثيرة وبعد تحركات سياسية مزلزلة .. نجح ورفاقه الشباب في التخلص من بعض "القيود" ، واستطاع تكوين تحالفات سياسية ، واستطاع كسب ثقة الناس في فترة عمادته لإسلامبول (اسطنبول) أربع سنوات أصلح فيها المدينة وخلصها من القاذورات لتصبح مدينة حديثة ، وكان أردوغان أول رئيس جمهورية في تاريخ تركيا يُنتخب عن طريق الاقتراع المباشر كما أن مرسي أول رئيس منتخب في تاريخ مصر ..

لعل سبب فشل الإنقلاب التركي الأخير هو : التخطيط الخارجي الذي لم يستطع فهم طبيعة الوضع الجديد في تركيا ، فتركيا اليوم ليست حكماً جبرياً ، والوعي التركي ليس هو قبل عقود ، والمؤسسة العسكرية لا تسيطر على باقي المؤسسات الأمنية كالشرطة والداخلية والمخابرات وغيرها كما هو الحال في مصر ، والإعلام ليس مأجوراً ولا رخيصاً ، والأحزاب السياسية ليست سطحية التفكير وإن كان بعضها يعادي أردوغان ، بل ويعادي الإسلام ذاته ، وأردوغان وحزبه ومؤيدوه تغلغلوا في جميع مؤسسات البلاد ، وهذا ما أخطأ فيه "مرسي" عندما أراد أن يدفع تهمة "الأخونة" عن نفسه فلم يعيّن أفراد الإخوان في مواقع حساسه ليكونوا له ظهراً وسندا ، وكان من الواجب عليه كرئيس منتخب وحزب منتَخَب أن يعيّن الثقات في جميع المراكز الحساسة في البلاد ، ولعل أكبر خطأ وقع فيه مرسي هو : تعيين من لا يعرف : وزيراً للدفاع في دولة يتحكّم الجيش فيها بكل مرافق الحياة وبشكل كامل ، وبينما كان أردوغان يرفع الدعاوى القانونية على كل صحيفة تنال من شخصه ، ترك مرسي العنان للإعلام المصري يخوضون فيه حتى كثر شاكوه من العوام ..

ما يُنتَظر من أردوغان الآن بعد هذا الإنقلاب هو :
أولاً : التخلّص من جميع مناوئيه في السلك القضائي ، وزرع مؤيديه بدلاً منهم ، وهذه أول خطوة يجب أن يتخذها لتأثيرها على باقي الخطوات ..
ثانياً : التخلّص من جميع المناوؤين في الجيش والأجهزة الأمنية بحجة مشاركتهم في الإنقلاب ، وإعدام كبار القادة بأسرع وقت ..
ثالثاً : عزل جميع المتعاطفين مع "فتح الله كولن" من جميع المراكز الحساسة في البلاد وتجريدهم من صلاحياتهم والتخلّص من مؤسساته التعليمية بجعلها تحت إدارة الحكومة مباشرة ..
رابعاً : الضغط على أمريكا لتسليم "كولن" وذلك عن طريق أوراق سوريا والعراق والقواعد العسكرية التركية والحرب على الإرهاب ..
خامساً : يستطيع أردوغان اتهام بعض الدول التي لا يرغب في تكوين علاقات حقيقية معها بالضلوع في الإنقلاب ، وبالتالي : قطع علاقاته بها (كروسيا واليهود) ، وهذه خطوة كبيرة قد لا يستطيعها في الوقت الحاضر ..
سادساً: ستزداد شعبية أردوغان كثيراً بعد هذا الإنقلاب ، ولكن لا ينبغي لأردوغان أن يختزل الحزب في شخصه ، بل يجب أن يُعطي الحزب كامل حقه من هذه الشعبية ، لأن في اغتيال أردوغان أو موته موت للحزب إن هو احتكر هذه الشعبية ..
سابعاً : يستطيع أردوغان اليوم المسارعة في نشر مظاهر التديّن في البلاد دون معارضة تُذكر ، وعليه أن يركّز على نشر مفاهيم الوحدة الإسلامية بين الأكراد ليحارب مفهوم القومية الكردية البغيضة التي يستغلها بعض شياطين الأكراد ، وكذلك تغيير عقيدة الجيش التركي وأجهزة الأمن لتصبح إسلامية خالصة ..
لا يشك أحد بأن أمريكا وروسيا والأوروبيون واليهود ومواليهم من العرب خلف هذا الإنقلاب ، فحزب العدالة إسلاميّ الهوى ، وإن كنا نخالف رؤاهم وبعض تصرفاتهم وإعلانهم العلمانية ، إلا أن الحقيقة ظاهرة لا ينكرها أحد ، والحزب يعمل على إعادة الدين إلى تركيا ، ونجح نجاحاً ملحوظاً في ذلك ، وهذا يعرفه من عرف تركيا قبل عقدين فقط ..
إن الحكم المطلق على حكومة تركيا المتمثلة في حزب العدالة ليس كالحكم على المعيّن ، فظاهر الحكومة علماني كما يصرّح رؤساءها ، والعلمانية هي : فصل الدين عن الدولة ، وهذا كفر كما هو معلوم (انظر كتاب العلمانية للشيخ "سفر الحوالي" شفاه الله ، فهو أفضل كتاب في بابه ، وكذلك كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" للشيخ محمد قطب رحمه الله) ..
لقد تقرر في القرآن أنه من {لم يحكم بما أنزل الله} في سائر شؤون حياته أو في بلاده فهو كافر ظالم فاسق ، ويشتد الكفر إذا كان تشريع ما يخالف شرع الله أو إقرار هذا التشريع أو الرضا به مع معرفة مخالفته للشرع .. وتقرر بأن من يتولّى أعداء الله ويظاهرهم على المسلمين فهو كافر ، وحكمه حكم من يتولاهم بنصّ القرآن وبإجماع علماء المسلمين ، فهذا هو الحكم المطلق ، أما الحكم على المعيّن فإنه يأخذ في الاعتبار : توفّر الشروط وانتفاء الموانع ، ولعل من الموانع في حالة تركيا : الإكراه والتأويل ، فنحن نرى محاولات أفراد الحزب للتخلص من مظاهر العلمانية ،

ومحاولة نشر المفاهيم الإسلامية في ظل تسلط العلمانية الأتاتوركية الشرسة ، بعكس الحكومات العربية المتمكّنة في بلادها والتي تحارب المظاهر الإسلامية وتحاول جاهدة نشر الكفر والإلحاد والانحلال الخلقي والفاحشة بين المسلمين .. أما التأويل فهو : الاعتقاد بجواز التدرّج في هذه الأمور بناء على المعطيات .. البعض يقرّ هذا الاجتهاد ، والبعض يعارضه ..

لسنا هنا بصدد نقاش حكم الحكومة التركية ولا أفرادها ولا الفصل في الأمر ، فهذا له مقام آخر ، وإنما نحن هنا بصدد بيان الفرق بين الإنقلابين ، وأخذ الدروس والعبر من الموقفين ، ولعل أهمها :

1- أن الأخذ بالأسباب أمر مطلوب شرعاً وعقلاً ، وبدون هذا لا ينتج عملاً مثمراً ، وهو خلاف التوكّل الصحيح على الله تعالى ..

2- وأن التمسكن السياسي والمهادنة ليست حلاً ناجحاً في كل الأوقات ،

3- وأن القوة السياسية والكثرة العددية والدقة التنظيمية للجماعات الإسلامية لا قيمة لها إن لم يكن لها ظهر عسكري قوي يحميها ، وهذا ما أدركه حسن البنا – رحمه الله – حين كوّن مجموعات عسكرية إخوانية في بداية نشأة الجماعة ..

4- وأن الشعوب تحتاج لسنوات لتغيّر قناعاتها ، وتحتاج لبيئة صالحة لتتغيّر مفاهيمها ..

5- وأن القوى الطاغوتية لا تترك مجالاً للشعوب للعيش في هامش حريّة ما لم تنتزع الشعوب حقها بالقوّة ، وبعمق المؤسسة الطاغوتية وتغلغلها يكون ألم انتزاعها من حياة الناس ، فالله تعالى يعاقب الأمة التي ترضخ للحكم الطاغوتي بجعل ألم التحرر منه على قدر مدّة سكوتهم عنه ..

6- وأن المهادَنة ليست هي المداهَنة ، فالثبات على المبادئ هو رأس مال أهل الحق ، ومتى ما تخلوا عنها ضعفوا وجبنوا عن المواجهة ..

قد يأتي الإصلاح عن طريق الممارسة السياسية في بيئة تقبل التعددية ، ولكنه إصلاح بطيء ومحدود ومشروط في أغلب الأحيان ، أما الإصلاح العسكري فهو كالحجامة التي تنتزع الدم الفاسد من الجسد وتلفظه ، فهو إصلاح سريع إن تمكّن ، ولذلك كان الدفع بين الناس هو سبب صلاح الأرض ، فالجهاد هو وسيلة الإصلاح الحقيقية في الأرض لتمكين الحق والعدل ، وهو المذكور في القرآن والسنّة ، وفي وقت فساد الأرض يكون مطلباً ملحاً وفرضاً مؤكداً أكثر من الأوقات الأخرى ، وقد أشار الله تعالى إلى كثرة الإثخان في بدايات ظهور الدعوة للتخلص من العناصر البشرية الفاسدة في الأرض في قوله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} (الأنفال : 67) فلا بد من الإثخان قبل التمكين الحقيقي ، وهذا ما لم يعمله "مرسي" في مصر عندما ترك لأعداءه الحبل على الغارب فلم يُثخن فيهم سياسياً على الأقل ، بينما أثخن أردوغان في أعداءه كلما سنحت له الفرصة ..

متى يبلغ البنيان تمامه ... إذا كنت تبني وغيرك يهدمُ

إذا كانت عملية الهدم أسرع من عملية البناء وأقوى فإنه من العبث البناء في مثل هذه الظروف .. لا بد من إزاحة المسؤولين والمباشرين عن عملية الهدم حتى نستطيع البناء ، وهذا مفهوم الآية {يُثخن في الأرض} ، فنعدّ العدّة ونجمع الأتباع ونبيّن لهم حقيقة الأمر ثم نحمل على عمّال الهدم

فنُثْخن فيهم حتى نقلل من تأثيرهم أو نزيله كلياً بالتخلّص منهم ، ثم يبني مهندسوا البنيان (العلماء والأمراء) صرح الإسلام بحراسة المجاهدين في سبيل الله ، ومن لم تكن عنده قوّة أو يأوي إلى ركن شديد فلا يحلم بالإصلاح في ظل نظام الطواغيت ..

والله أعلم .. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

كتبه

حسين بن محمود

12 شوال 1437هـ